العلمانيّون والعكّاز الطائفيّ

علي جاسب الزبيدي

ملخص البحث

يستعرض البحث مبدئيّاً موقف الإسلام الإيجابي من موضوع الاختلاط مع الشعوب والانفتاح العالمي ولكنّه يؤكّد على شرطيّة هذا الأمر تأطّره بالقوانين اللازمة التي تحفظ الحدود بين الثقافات ولا تؤدّي إلى الذوبان المطلق فيما بينها، ثُمّ يناقش موقف العلمانيّة المغاير الذي يغفل موضوع شرطيّة الانفتاح عن قصد أو دونه. ثُمّ يسأل البحث السؤال المركزي: أنحن حقّاً بحاجةٍ للعلمانيّة كبديل عن الإسلام؟ وفي سياق الإجابة عنه يتمّ استعراض ومناقشة الكثير من الآراء المهمّة التي وردت للإجابة عن التساؤل أعلاه، وأهمّها آراء المفكّر جورج طرابيشي الذي يركّز على أهميّة العلمانيّة بوصفها ضرورةً لحماية الأقليّات في العالم الاسلامي، ولكنّه يغفل عن إمكانيّة وجود الحلّ لمشكلة الأقليّات داخل الإسلام نفسه. يدرج البحث أيضاً بنقاط أهمّ خصائص العلمانيّة المتبنّاة في الغرب ويبدأ بمناقشتها ويعتمد في ذلك على آراء المفكّر عبد الوهاب المسيري الذي يبرز الكثير من سلبيّاتها. يناقش البحث أيضاً مفهوميّ العلمانيّة الجزئيّة والعلمانيّة الشاملة ويخلص إلى أن لا فرق جوهري بين الإثنين كما ينظر له العلمانيّون العرب وأنَّ العلمانيّة الجزئيّة ستؤدّي بالضرورة إلى الشاملة بعد فترةٍ كما حدث في الغرب.

الكلمات المفتاحيّة: العلمانيّة, جورج طرابيشي, عبد الوهاب المسيري, العلمانيّة الجزئيّة, العلمانيّة الشاملة.

المقدمة

تؤكّـد الآيـة القرآنيّة الكريمة ﴿**وَ جَعَلْناكُمْ شُـعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُـمْ عِنْـدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ**﴾[1]، على قضيّةٍ هامّةٍ تتعلّق بمسـألة العلاقة مـع الآخـر التـي يجب أن توسـم بالتعارف، وهـو مفهومٌ حيـويٌّ يقع على الضـدِّ مـن الجـدران العازلة التـي يحلو للسـلفيين أن يضعوهـا بيننا وبين الثقافـات الأخـرى، كما أنّه يخالـف بطبيعة الحال فطرة الإنسـان الواضحة التـي تدفعـه بشـكلٍ حثيـثٍ إلـى أن يتبـادل ثقافته مـع ذلك الآخـر، ليؤثّر فيـه ويتأثّـر بـه، بـل نعتقد أنّه شـيءٌ هـامٌّ ومحفِّزٌ ضـروريٌّ نسـتلهم عِبره عوامـل النهـوض والتطـوّر، ولكـن بعـد أن نأخـذ بنظـر الاعتبـار جملـة السـلبيّات التـي تحتويهـا كلُّ ثقافـةٍ مـن هـذه الثقافـات، ولهـذا السـبب تحديـداً يجب أن تخضـع عملية التـداول الثقافي لفلترةٍ دقيقـةٍ يتمُّ عِبرها تحليل الشـبهات، ورصـد الاختلافات التـي ترافق تلك العمليّـة، وإن كان لبعضهـم وجهـة نظـرٍ أخـرى، كالعلمانييـن مثـلاً الذيـن يريـدون أن تتمَّ هـذه العمليّـة بدون قيدٍ أو شـرط، وهـو موقفٌ غريبٌ ينمُّ عن اسـتخفافٍ واضـح بطبيعـة المتغيّرات والظـروف الاجتماعيّة التي ترافـق كلَّ ثقافةٍ من هـذه الثقافـات، فضـلاً عن سـمة التقليـد الواضحـة للآخر التـي تطبع هذا النـوع مـن التفكيـر، حتـى وصل بهـم الأمـر إلى اسـتعارة نفـس الأحكام والأفـكار التـي وصـل إليهـا الغرب فيمـا يخصُّ الإسـلام كدين.

وبمـا أنَّ للغـرب ـ ونظـراً لتجربته المريرة مع الكهنوت المسـيحي ـ موقفـاً مـن الديـن لا يمكـن أن يوصـف إلّا بالسـلبيّة القصـوى، فقـد

(1) سورة الحجرات، الآية: 13.

انعكس هذا الموقف، بقضه وقضيضه على كتابات المفكّرين العرب أصحاب الأنموذج العلماني، إذ لم يأخذوا بنظر الاعتبار الفروقات الكبيرة بين الإسلام والمسيحية، فعلى الرغم من اتفاقنا وإيّاهم في وصف مظاهر التخلّف تلك إلّا أنّهم أخطأوا في تشخيص الأسباب الحقيقيّة التي تقف وراءه، وأبوا إلّا أن يعزوها للدين، ولهذا تجد أنَّ كتاباتهم تربط وبشكلٍ تعسفيٍّ بين كلِّ مظاهر التخلّف وبين الإسلام، وهذا اتّهامٌ خطيرٌ لا يمكن السكوت عنه، ليس فقط لأنّنا نؤمن بهذا الدين وندافع عنه، بل لأنّنا نريد حقّاً أن نشخص الأسباب الجوهريّة التي تقف وراء هذا التخلّف ليتسنى لنا على أقلِّ التقادير النظر فيها ومعالجتها، وما عملية الاتّهام التي يوجِّهها بعضهم للإسلام سوى انزياحٍ متعمَّدٍ عن الأسباب الحقيقية الكامنة وراءه، بل هو أسلوبٌ مقيتٌ يتبع سياسة تضبيب الرؤى، وتشتيت الأفكار، وخلط الأوراق، لتتعلَّب القناعات وفق مقاييسهم ورؤاهم.

ولهذا نؤكِّد أنَّ عمليّة الإرساء التي تتوقف عليها المواقف العقلانيّة، وهي تنشد الحقيقة يجب أن تميِّز بين ذلك، لتنعكس لنا الحقائق بدون أيِّ تزييفٍ أو تزويقٍ عاطفي، فالإسلام – والحقُّ يقال – لا يمكن أن يُحصَر بين جدرانٍ ضيِّقة، فهو أكبر من الإيديولوجيا، بل من كلِّ التصنيفات الأخرى التي يروق للبعض أن يحدّد بها ذلك الدين، فهو ببساطةٍ شديدة، موقفٌ من الحياة ببعديها الروحي والمادِّي، إنّه موقفٌ إنسانيٌّ أصيل، يمتزج فيه الأخروي الماورائي مع الدنيوي الموضوعي ليشكّلا معاً ذلك النسيج العظيم الذي يحفظ للكائن البشري تكامله، إذا ما آمن به وسار على خطاه.

السؤال المركزي

وهنا يأتي السؤال الذي نعتقد أنَّه الأهمُّ في هذا السياق، أنحن حقّاً بحاجةٍ للعلمانيّة بديلاً عن الإسلام في حلحلة مشاكلنا ومعالجة قضايانا؟ أم هي واحدةٌ من تلك الحجج التي نتحايل بها على أنفسنا، لتسويغ ذلك الركام الطويل من التجارب الفاشلة التي كنّا وما نزال نخوضها مع الإسلام؟ فبتنا نلتمس من هنا وهناك بعض النماذج علَّها تنسجم مع ذواتنا الخاملة وعجزنا الأبدي حتّى وصل الأمر ببعض المفكّرين الكبار من الذين خبروا الإسلام، وتلمسوا نقاط قوّته وعظمته، أو على الأقلّ اطلعوا على تاريخه ومحنه، أمثال المفكر السوري جورج طرابيشي، الذي ساق مؤخّراً واحدةً من هذه الحجج، وجعل منها مسوغاً للعدول من النموذج الإسلامي إلى النموذج العلماني، والذي يمكن تسميته بالمسوّغ الطائفي، يقول فيه: "بديهي أنّنا لا نماري في أنَّ العلمانيّة في وجهٍ من وجوهها يمكن أن تمثّل مطلباً للأقليات، بقدر ما يمكن أن تقدّم لها ضمانةً للمساواة التامّة أمام القانون.

ولكن ما نماري فيه بالمقابل هو أن تكون الأقليّات المعنية في الدائرة العربيّة الإسلاميّة هي الأقليّات المسيحيّة حصراً. ذلك أنَّ العلمانية فلسفةٌ وآليةٌ لتسوية العلاقات لا بين الأديان المختلفة فحسب، بل كذلك بين الطوائف المختلفة في الدين الواحد. والحال أنَّ التعدديّة في الدائرة العربيّة الإسلاميّة ليست محض تعدديّةٍ دينيّةٍ أو إثنيّةٍ، بل هي أيضاً تعدديّةٌ طائفيّةٌ. فالإسلام العربي، بواقعه الديمغرافي الحالي يتألّف من غالبيّة سنيّة بكلٍّ تأكيد، ولكن أيضاً

مـن أقلّيـة شـيعيّة ونصيريّـة وزيديّـة وإسـماعيليّة ودرزيّـة وإباضيّة.

ومـن منظـور هـذه التعدديّـة الطائفيّـة الإسـلاميّة، فـإنَّ القضيّـة العلمانيّـة فـي العالـم العربي ليسـت فقط قضيّةً مسـيحيّةً ـ إسـلاميّةً كما يطيـب لخصـوم العلمانيّـة تصويرهـا، بل هي أيضـاً وربّما أساسـاً، قضيّةٌ إسلاميّةٌ ـ إسـلاميّةٌ.

ولعلّنـا نسـتطيع أن نذهـب إلـى أبعـد من ذلـك فنقـول: إنَّ تركيز خصـوم العلمانيّـة على البعـد الأقلوي المسـيحي لإشـكاليّة العلمانيّة في العالـم العربـي إنّمـا يخفـي مثله مثـل كلِّ منطوقٍ بـه، مسـكوتاً عنه، هو أعظـم خطـورةً وفداحـةً بعد، ويعنـي به بعدهـا الطائفي الإسـلامي.

وقـد كان لا بـدَّ من انتظار كارثـة الاحتلال الأمريكـي للعراق حتى ينفجـر ذلـك المسـكوت عنـه بـكلِّ القـوّة التـي لا مناص مـن أن ينفجر بهـا المكبـوت الذي طـال كبته"[1].

نفهـم مـن الطـرح الطرابيشـي أنَّ العلمانيّة ضـرورةٌ تاريخيّـةٌ ملحَّةٌ يفرضهـا علينـا الواقـع، ليس بسـبب وجود أقليّـات دينيّة فقـط، بل أيضاً لوجـود طوائـف إسـلاميّةٍ عدَّة تصنـف على أنّهـا أقليّاتٌ مذهبيّـةٌ، إذا ما قورنـت بالطائفـة السـنيّة التي تحتـلُّ النسـبة الأكبر في العالم الإسـلامي، ولهـذا يعتقـد طرابيشـي وغيـره مـن المفكّريـن العلمانييـن بـأنَّ الحـلَّ الأمثـل الـذي تتسـاوى فيـه وعِبـره حظـوظ الأقليّـات الدينيّـة والطائفيّة أمـام الغالبيّـة العظمـى هـي العلمانيّـة لا غيـر، لأنّهـا – كمـا يعتقـدون – سـتكون الضمانـة الأفضـل لتلـك الأقليّات.

وبذلـك سـيكون المسـوّغ الـذي تحـدث عنـه طرابيشـي ذا تأثيـرٍ

(1) العلمانية في المشرق العربي، مجموعة مؤلفين، ص16.

عـالٍ ليـس في نفسـيّة أفـراد تلـك الأقليّات فحسـب، بـل كلّ من يطرق مسـامعه ذلـك المبرّر، خاصّةً وهـو يصوِّر بتلك الطريقـة الدراميّة الماهرة التـي يـراد لهـا في هذا الزمـن تحديـداً، أن تكـون فاعلةً ومؤثّرةً بشـكلٍ كبيـرٍ لتعيـد إلـى الأذهـان تلـك الإشـكاليّة التي مـا برحت تضغـط بقوّةٍ جنونيّـةٍ كبيـرةٍ فـي واقعنا منذ عصـر الخلافـة إلى الآن.

إنّهـا مسـألة السياسـة بـكلِّ ملابسـاتها ومـا صاحبهـا مـن تخبُّـطٍ وعشـوائيةٍ مريـرةٍ، ونحن كأنـاسٍ نعيش على هـذه البقعـة الجغرافية من الأرض، وندين بهـذا الديـن، لا يمكننـا أن ننكـر أو نقلِّـل مـن أهميّتها، ولكـن طرابيشـي كغيره مـن المفكّريـن العلمانييـن، قد جعلنـا عِبر ذلك العـرض القصصـي المعبَّـأ بتلـك الإشـكاليّة أمام خيـارٍ واحـدٍ لا ثاني له، أعنـي بـه الخيـار العلمانـي، كحلٍّ أمثـل أمام البعـد الأقلوي كما يسـميه، بعـد أن تـمَّ تغييـب الإسـلام نفسـه كواحدٍ مـن الحلـول المقترحـة لهذا البعـد، فقـد يكـون الحـلّ كامناً في الإسـلام ذاتـه، فلمـاذا يتمُّ اسـتبعاده إذن، ولهـذا سـنقوم بوضعـه واحـداً مـن الحلـول المقترحـة إلـى جنب العلمانيـة، ولا نريـد أن نسـتعجل بإعطاء أحكام مسـبقة عن الحلّ، سـواء أكان علمانيّـاً أم إسـلاميّاً، مـن دون أن نقـوم بعمليّة عـرضٍ موجزةٍ لأهمِّ الخصائـص التـي تميِّز كلاً منهما، لأنَّ عمليّة الشـروع فـي التفكير لإيجاد حلـول لتلـك الأزمـة يجـب أن تكـون مقبولـةً، وعلـى قـدرٍ كبيـرٍ مـن الواقعيّـة، بحيث تسـتطيع أن تلبـي الحاجـات الماديّة والمعنويّـة، وحتّى الفطريّـة لذلـك المجتمـع، أي أن تأخـذ بنظـر الاعتبـار التركيبة النفسـية والروحيـة والاعتقاديـة له.

إذن هـل يمكـن أن تكـون العلمانيـة هي الحـلّ؟ للإجابة عن هذا

السؤال لا بدَّ أوَّلاً من معرفة ماهية العلمانية؟ وماذا تريد؟ وماهي الأهداف والغايات التي تسعى إلى تحقيقها؟ وما منظومة القيم الكامنة وراءها؟ وما هي طبيعة تلك السعادة التي تقترح توفيرها للإنسان؟ وما مدى انسجامها مع طبيعة الإنسان المسلم ونفسيته وقيمه ؟

ونحن هنا لسنا بصدد الإجابة عن كلٍّ تلك الأسئلة، بقدر ما نريد أن نعطي تصوُّراً عاماً حولها يتناسب وطبيعة البحث وحجمه، كما لا نريد أن نأتي بتعريفٍ مخصَّصٍ للعلماني، لأنَّ العلمانيّة كما يدَّعي دارسوها لها الكثير من التعاريف المتعدّدة والمختلفة من حيث الصياغة والمضمون، ولهذا سيقتصر حديثنا على ذكر أهمِّ الخصائص التي تتصف بها العلمانيّة من وجهة نظر المؤيّدين والرافضين على السواء. كما أنّه سيقتصر على العلمانيّة الشاملة، لأنَّ العلمانيّة الجزئيّة إذا ما أريدَ لها أن تُطبَّق فإنّها ستتحوّل تدريجيّاً وبشكلٍ حتميٍّ إلى علمانيّةٍ شاملة، كما حصل في البلدان الغربيّة، لأنَّ قيم العلمانيّة ستتمدّد لتشمل جوانب الحياة كلّها، بما فيها الجانب الأخلاقي للإنسان، فهي إذن لن تقتصر على المجال السياسي أو الاقتصادي، كما يحبُّ أنصار العلمانيّة الجزئيّة أن يسوِّقوه، ففي الغرب مثلاً نجد أنَّ (الدولة العلمانيّة والمؤسّسات التربوية والترفيهيّة والإعلاميّة وصلت إلى وجدان الإنسان، وتغلغلت في أحلامه، ووجهت سلوكه وعلاقاته بأعضاء أسرته النووية، وقوَّضت ما تبقى من أخلاقيّات مسيحيّة أو حتّى إنسانيّة (هيومانيةHUMANIST)، ولم يعد بالإمكان الحديث عن فصل هذا عن ذاك، وبخاصّةٍ بعد عام 1965، حين انتقلت الحضارة

الغربيـة الحديثـة مـن مرحلـة الصلابة إلى مرحلـة السـيولة)[1] لهذا نقول إنَّ كلامنـا سـيقتصر علـى ذكـر أهـمِّ خصائـص العلمانيّـة الشـاملة، التي سـنأتي عليها الآن.

أهمُّ خصائص العلمانيّة الشاملة:

1. إنَّ مفـردة العلمانيّـة صفـة للمجتمـع، تـدلُّ علـى عمليّـة تحرُّر عينـي لحيـاة الإنسـان مـن الديـن، وليـس مـن الإيديولوجيـا فقـط التي تـدلُّ مفـردة العلمانيّـة عليها.

2. العنصـر الأهـمُّ فـي المجتمـع العلماني على المسـتوى السـلبي هـو إقصـاء الدين عن مركـز الحياة الإنسـانيّة، وعلى المسـتوى الإيجابي إحـلال العقـل محلَّ الديـن في تنظيـم الحياة البشـرية.

3. المـراد بالعقـل هنـا هـو العقـل الذرائعي، عـدم الثقـة بالتقاليد، وإسـقاط الشـرائع عن الاعتبـار، واكتفاء الإنسـان بذاته، والاقتنـاع بالدور الذرائعـيّ للعقـل، والاكتفـاء بـه في معالجـة مشـكلات المجتمع[2].

4. إنَّ المرجعيّـة النهائيّـة للعلمانيّـة هـي مرجعيّـةٌ مادِّيـةٌ بحتةٌ، أي إنَّ العلمانيّـة بمعنـىً آخـر تسـعى إلـى إيجاد عالـمٍ خالٍ مـن المعنى، لا قيمـة فيـه، ولا سـبب، ولا غايـة، ولا نتيجة، سـوى إرادة القـوَّة التي ليس لديهـا سـوى غايـةٍ واحدةٍ (تتلخَّـص بالمنفعـة لا غير).

5. تشـيئة الإنسـان وسـلعنته (أي تحويله إلى شـيءٍ وسـلعةٍ كباقي

(1) د. عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ج1، ص20.

(2) العلمانيـة مذهبـاً، دراسـة نقديـة فـي الأسـس والمرتكـزات، مجموعـة مـن الباحثيـن، مركـز الحضـارة لتنميـة الفكـر الإسـلامي، ص72-73.

السلع والأشياء الأخرى) وهي بذلك تسلب منه أثمن ما لديه وهو المعنى، فيتحوَّل إلى كائنٍ جامدٍ منطفئٍ يتَّسم بذبول الروح، والقلق، واليأس، والخوف من المستقبل.

6. في العلمانيّة لا وجود لحقيقةٍ مطلقة، فالكلُّ خاضعٌ لقانون النسبيّة، وكلُّ شيءٍ متغيِّر، فالحقيقة لا يمكن الإمساك بها، بما في ذلك الحقائق العلمية نفسها.

7. الأخلاق بدورها نسبيّة، تتغيَّر بتغيُّر المكان والزمان والظروف، فما يبدو أخلاقياً في زمنٍ ما قد يصبح غير أخلاقيٍّ في زمنٍ آخر، وكذا الأمر مع المكان، فقد يكون تصرُّفٌ ما في أحد دول العلم تصرُّفاً أخلاقيّاً، بينما يعدُّ مشيناً في دولةٍ أخرى، كما أنَّ للظروف دورها في تغيُّر الأخلاق أيضاً، وبذلك يصبح الحديث عن القبح والحسن العقليين حديث خرافة، وإذا شئنا الدّقة أكثر (فإنَّ المعرفة المادِّية هي المصدر الوحيد للأخلاق، وبما أنَّ المادَّة في حركةٍ دائمةٍ. إذن، لا يوجد أيّة قيم أخلاقيّةٍ ثابتةٍ)[1].

8. الإنسان جزءٌ لا يتجزأ من الطبيعة/المادَّة، ليس له حدودٌ تفصله عنها، ومن ثمَّ هو ظاهرةٌ بسيطةٌ أحاديّة البعد، وهو كائنٌ ليس له وعيٌ مستقلّ، خاضعٌ للحتميّة الماديّة المختلفة، غير قادرٍ على التجوُّز والاختيار الأخلاقي الحرّ، أي إنّه يتمُّ تفكيكه وتسويته[2].

9. إنَّ القانون الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه في العلمانيّة

(1) د. عبد الوهاب المسيري، د. عزيز العظمة، العلمانية تحت المجهر، ص 121.

(2) المصدر السابق، ص121.

هـو قانـون النسـبيّة المطلقة.

10. التبجُّـح بالعلـم بحيـث تصـف كلَّ مـا يعارضهـا مـن قيـمٍ وأخـلاقٍ وديـنٍ بالخرافـة.

إذن، هـذه هـي أهـمُّ الصفـات والخصائـص التـي تميِّـز العلمانيّة، وهي خصائص، لا شـكَّ مسـكونةٌ بهاجس اللذَّة والمتع الاسـتعماليّة في مدياتهـا القصوى، بعد أن يتمَّ تسـويغها عقليّاً بالشـرط الإنسـاني الذي لا يمكـن لأحـدٍ أن يتنـازل عنـه، وأعنـي به شـرط الحرية الذي يبـدو وفقاً للخصائـص العلمانيّة أعلاه، قد أسـيء اسـتخدامه بشـكلٍ مفـرطٍ، بل تمَّ التعامـل معه كشـعارٍ، يسـوّغ الكثير من الانتهـاكات والأمـور اللاأخلاقيّة بحيـث نسـتطيع أن نقـول مـع المسـيري بـأنَّ (الحضـارة الغربيّـة (التـي تتبنـى النمـوذج العلمانـي) هي حضـارةٌ تكنولوجيّـةٌ تُعلي قيمـة المنفعة والكفـاءة والإنجـاز والتقدُّم مهمـا كان الثمن المادِّي والمعنـوي المدفوع فيهـا، وتـرى أنَّ البقـاء للأصلـح والأقـوى دائمـاً، وتهمـل كثيـراً القيـم التقليديـة (الباليـة)، مثـل البـرِّ بالضعفـاء والشـهامة والتقـوى ومسـاعدة الآخرين)[1].

ولكـنَّ العلمانيّـة – وتلـك هـي القضيّـة – سـتكون ذا تأثيـرٍ قـويٍّ وفاعـلٍ لـدى أولئـك الذيـن ينسـاقون وراء نزعتهـا اللذائذيّـة وعقلها الذرائعـي، فهـي كمـا قلنـا تركِّـز بشـكلٍ كبيـرٍ ومباشـرٍ علـى الجانـب المـادِّي للإنسـان.

إذن، كيـف يتوجَّـب علينـا ـ نحـن الذيـن نؤمن بـأنَّ هنـاك أبعاداً

(1) د. عبـد الوهـاب المسـيري، العلمانيـة الجزئيـة والعلمانيـة الشـاملة، ج1، ص 107.

عديدةً ومتكثرةً للإنسان من أهمِّها البعد الروحي والمعنوي الذي يتواشج ويتراكب ويتداخل مع بعده المادّي، ليشكِّلا معاً ذلك الكيان العظيم والمعقَّد الذي نطلق عليه تسمية إنسان ـ أن نقيِّم العلمانيّة، بعد أن علمنا بأن لا شأن لها بالجانب المعنوي والروحي له، لا شكَّ أنَّ تقييمنا سيكون سلبياً بالضرورة، لأنَّ ما تفعله العلمانيّة، ليس سوى تسطيح الإنسان واختزاله في بعده المادِّي فقط، وعدّه كائناً أحاديّ الجانب، كائناً مستلباً، ولكن هذه المرّة من المادِّة نفسها، وهو ما يؤكّده المؤرّخ البريطاني الكبير أرنولد توينبي حيث يقول:"إنَّ الحضارة الغربية مصابةٌ بالخواء الروحي الذي يُحوِّل الإنسان إلى قزم مشوَّهٍ يفتقد عناصر الوجود الإنساني، فيعيش الحدَّ الأدنى من حياتِه، وهو حدٌّ وجوده المادّي فحسب، والذي يُحوِّل المجتمع إلى قطيعٍ يركض بلا هدفٍ، ويُحوِّل حياته إلى جحيمٍ مشوبٍ بالقلق والحيرة والتمزّق النّفسي"[1]. نعم لقد انتبه توينبي وغيره من الكتاب والمفكرين الغربيين إلى الخلخلة العظيمة التي يحدثها الهوس المادي في حياة الإنسان الغربي، إنَّ النزعة الاستهلاكية اللذائذية هي العلامة الفارقة والمميزة لهذا المنهج، وليست الحرية سوى شعارٍ يتمُّ عِبره وبواسطته استدراج ضحاياه، ولهذا فهو يزوِّد مستهلكيه بطمأنينةٍ زائفة.

إنّنا نلاحظ باستمرارٍ أنَّ هناك تناقضاً واضحاً وبيِّناً في الحضارة الغربيّة، وهو تناقضٌ يبعث على الازدراء والبؤس، فعلى الرغم من التقدُّم المادِّي الهائل الذي وصلته تلك الحضارة إلّا أنّها ما زالت أعجز

(1) أبو زيد أوكاي بالا، نقلاً عن مقال نقد العلمانية، مقال على شبكة النت.

عـن تقديم السـعادة والاطمئنان لمواطنيهـا، فتلك البوهيميّـة العقليّة التي اتّخذتهـا كمنهـج وسـلوك حيـاة جعلهـا تعيـش الغربـة الحقيقيّـة، غربـة الـروح التـي تشـعر بالضيـاع، والقلق النّفسـي، وفقـدان التـوازن، فهي لا تجيـد العـزف إلّا خارج فطرة الإنسـان.

نعـم إنّهـا نغمـةٌ غريبـةٌ مثقلةٌ بالمادَّة، مهووسـةٌ لا بتشـيئة الإنسـان فقـط، بـل عواطفـه وأحاسيسـه أيضـاً، لهذا يجـب القـول بـ (أنَّ الدين ليـس حاجـةً أنتربولوجيّـةً ومـلاذاً أنطولوجيّـاً من قهر المصير فحسـب، إنّـه إلـى ذلـك فعاليّـة تغييـر وتثويـر بمثل ما هـو مقـوِّم تهدئـةٍ وتأطيرٍ.

وإذا كان البعـض يـرى فـي عـودة الدينـي نكوصـاً عـن مكاسـب المدنيـة والعلمنـة؛ فـإنَّ ذلـك لا يسـتقيم فـي رأينا لأسـباب:

منهـا: أنَّ العلمنـة التـي أرادهـا الفكـر العربـي منذ النهضـة لم تكن إلّا قشـريّةً، وقـد تكشـفت سـطحيّتها بعـد الثـورات العربيّـة، وصعـود الأصوليّـات الدينيّة المتشـدّدة.

ومنهـا: أنَّ التجربـة الغربيّـة قـد أثبتت فشـلها في تحييـد الدين من المجـال العمومـي، حتّـى صرنـا نألـف أدبيّـات عـودة الدين وفلسـفات التفكّـر فيـه، ومنهـا النتائـج الكارثيّـة علـى السـلم الاجتماعـي والمدنـي للتجربـة اللائكيّـة في نسـختها الفرنسـيّة)[1].

وعلـى الرغـم مـن هـذا كلّـه نجـد تعاطفـاً كبيـراً مـن العلمانييـن العـرب إزاء هـذه العلمنـة، ويبـدو أنهـم قـد تغاضـوا عن دورهـم الذي يفتـرض أن يكـون تصحيحيّـاً، أو ربما أخفقوا في الانتبـاه إلى الكثير من

(1) اسـتدعاء الشـأن الدينـي فـي المجـال العـام، محمـد الخـراط، مجلـة البـاب العدد السـابع.

التفاصيل المهمّة التي أغفلتها العلمانيّة فيما يخصُّ الإنسان وحياته السعيدة، فتمحورت رؤاهم حول نقاطٍ صغرويّةٍ باهتةٍ تلخصت باللذائذ المادِّيّة، كالجنس، والمتع الأخرى التي ازدهرت بشكلٍ مفرطٍ في الغرب، وأغرتهم بسطحيّتها اللامعة التي تخفي تحتها الكثير من الأمراض الاجتماعيّة والنفسيّة الخطيرة، وهو دليلٌ على انطفاء الحاسَّة النقديّة لديهم، لذا نجد أنَّ آراءهم وأفكارهم، بل أغلب ما فعلوه ليس سوى تقمُّصٍ للأفكار الغربيّة، وهناك الكثير من الشواهد على ذلك (فمعظم التعريفات- التي قدَّموها- تجاهلت الظواهر المصاحبة لظهور العلمانيّة، مثل الإمبرياليّة والاستهلاكيّة والحروب العالميّة والحركات الشموليّة، ولم تحاول اكتشاف ما إذا كانت هناك علاقة بين تصاعُد معدَّلات العلمنة في المجتمع، وتزايُد مركزيّة هذه الظواهر وهيمنتها)[1].

لذا نقول: إنَّنا في العلمانيّة العربيّة إزاء تبعيّةٍ مختلفة، إنّها التبعيّة الفكريّة التي لم تأخذ بنظر الاعتبار الكثير من الفروقات الفكريّة والثقافيّة والدينيّة، ولا حتّى الاجتماعيّة التي قد لا تنسجم وعالمنا العربي الإسلامي، فالعلمانية نفسها لم تكن سوى ردَّة فعلٍ بشريّةٍ جاءت لمعالجة حالةٍ مرضية، تلخَّصت بما فعله رجال الكنيسة المسيحيّة من فضائع، وهو ما دفع مفكري الغرب الذين لم يجدوا في الدين المسيحي إجاباتٍ شافيةً تسعفهم في أزمتهم مع الكهنوت الديني، وتدفعهم لتقديم قراءاتٍ جديدةٍ تختلف عن تلك القراءة

(1) د. عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ج1، ص98.

المزريـة التـي قدمتهـا المؤسّسـة الدينيّـة الحاكمـة، لهـذا عمـدوا إلـى العقـل، واتّخـذوا منه مرجعـاً وحيداً، بعد أن يئسـوا نهائياً مـن المرجعيّة الدينيّة.

هـذا باختصـارٍ شـديدٍ مـا حصـل فـي الغـرب، والـذي أدّى إلـى ولادة البديـل العلمانـي وسـيادته.

لكـنَّ هـذا البديـل أحـدث نوعـاً مـن القطيعـة الروحيّـة، فأصبـح الإنسـان الغربـي يشـعر بغربـةٍ شـديدةٍ على الرغـم من تواجده فـي عالمٍ يزخـر بـكلِّ مظاهـر التـرف والبـذخ المادِّي.

وهذا ما يفسِّـر تعطشـه للقيم، وشـعوره بالظمأ الأخلاقي، وحاجته الإنسـانيّة فـي البحـث عـن معنىً، كمـا دفع أغلب فلاسـفته إلـى البحث فـي الأكسـيولوجيا (فلسـفة القيـم) لمواجهـة تلـك العدميّـة التـي تكلَّم عنهـا (نيتشـه) سـابقاً حيث وصف عصـره (بعصـر العدم).

علـى كلِّ حـال، فـإنَّ هـذا مـا جـادت بـه القريحـة الغربيّـة إزاء مشـكلتها مـع الدينـي والسياسـي.

أمّـا نحـن فالقضيّة مختلفـةٌ عندنـا، وإن كنا نعيش نفس الإشـكالية التـي عاشـها الآخـر، فمشـكلتنا فـي العالم الإسـلامي ليسـت مـع الدين، بـل مـع ذلك السياسـي الـذي أخـذ دينه مـن وعـاظ السـلاطين وفقهاء المنفعـة الذيـن سـوَّغوا لـه الموبقـات، وأباحـوا لـه المحرَّمـات، وحلّلوا ظلمـه وعدوانـه علـى العباد، هـذه هـي مشـكلتنا الحقيقيّة، إنّها مشـكلة التطبيـق التـي يجب أن نجد لها حـلًّا من رحم النظريّة، وذلك للأسـباب الآتية:

أوَّلاً: إنّنـا فـي العالـم العربـي نمتلـك مرجعيّـةً تختلـف كليّـاً عمّا

هي لدى الغرب، إنّها المرجعيّة الإسلاميّة، تلك الديانة التي تضمُّ الدين والدنيا معاً، أي: امتزاج كلِّ ما يخصُّ حياة الإنسان من سياسةٍ، واقتصادٍ، واجتماعٍ، امتزاجه بالديني، بحيث نجد أنَّ الدين قد تطرَّق لكلِّ تلك الأمور وبسط الحديث فيها، وتَرَكَ هامشاً كبيراً للمتغيُّرات والمستجدات التي قد تطرأ على حياة الإنسان نفسه، فهو كفيلٌ بحلِّها، بينما لا نجد ذلك في الدين المسيحي الذي اقتصر وجوده على معالجة قضيّةٍ معنويةٍ محدّدةٍ وفي فترةٍ زمنيةٍ قصيرةٍ لا تتعدى الـ (500) عام، وخلوّه الواضح من أيَّة نظريّةٍ في الاقتصاد أو السياسة، ولهذا قد يُعذَر الغربي في اتّخاذه العقل بديلاً عن الدين في تقرير مصيره، وحلِّ قضاياه ومشاكله السياسيّة.

أمّا نحن، فلا عذر لنا في هذه المسألة، فلدينا مرجعيّتنا الدينيّة الممثّلة بالقرآن وسنّة الرسول ﷺ وآل بيته الكرام التي ترسم لنا الخطوط العريضة في السياسة وغيرها من شؤون الحياة الأخرى التي نستطيع عِبرها أن نتلمَّس الطريق.

ثانياً: إنَّ الحلول المقترحة من بعض المفكّرين بوصفها بديلاً عن الحلِّ الإسلامي هي بذاتها مشحونةٌ بالمشاكل، ومن غير المعقول أن نعالج مشكلةً ما بمشكلةٍ أكبر وأعقد من سابقتها، فهناك حيث توجد الدول العلمانيّة توجد الأزمات الاجتماعية الخطيرة التي يتمُّ التعتيم عليها، أو التعامل معها على أنّها أمرٌ واقعٌ مفروغٌ منه، ومن أهمِّ هذه الأزمات على الإطلاق التفكك الأسري الذي بدأ يأخذ طابعاً منظماً ومخططاً له تحت يافطة الحرية، فمثلاً بدأ التقنين للزواج المثلي في أغلب الدول العلمانيّة، وهو زواجٌ يؤدّي بالنهاية–

إذا تغاضينا عن مخالفته لفطرة الإنسان وأخلاقه– إلى زوال النسل على المدى المنظور، كما أنَّ هناك ظاهرةً لا تقلُّ خطورةً عن الأولى هي ظاهرة العلاقة بين الرجل والمرأة التي يسمّونها بـ(الصداقة) التي أصبحت في الكثير من الأحيان البديل المناسب عن الزواج، لأنّه يوفر للإثنين معاً المتع الجنسية، ويرفع عن كاهلهم المسؤوليّات التي يمكن أن تترتَّب على الزواج.

أمّا الأطفال الذين سيولدون من هذه العلاقة غير الشرعية فسيكون مصيرهم التشرُّد، أو دور الأيتام، وفي أحسن الأحوال تتحمل الأمّ مسؤولية رعايتهم وحدها، ولك أن تتنبَّأ بما سيؤول إليه مصير هذا الطفل الذي يولد بتلك الطريقة المقرفة.

وقد استطاع عبد الوهاب المسيري ـ ذلك الفيلسوف المغيَّب إعلامياً بسبب حفريّاته النقديّة للحضارة الغربيّة ـ أن يحدّد بشكلٍ لافتٍ في كتابه الممتع (العالم من منظورٍ غربي) الثمن الباهض الذي يدفعه الغرب لتقدّمه، فالمخدرات، والإباحيّة، والسلع التافهة التي لا تضيف معرفةً للإنسان، ولا تعمق إحساسه، وتآكل الأسرة، وتراجع التواصل بين الناس، والأمراض النّفسيّة، وتزايد العنف والجريمة، وانتشار الفلسفات العدمية، وفلسفة العنف والقوَّة، وتزايد الإحساس بالاغتراب والوحدة، وتزايد الإنفاق على التسليح إلى درجةٍ يصبح فيه ولأوَّل مرَّةٍ في التاريخ البشري أكثر ممّا ينفقه الإنسان على الطعام والملابس، هذه واحدةٌ من مئات المشاكل التي سببها النموذج العلماني.

لهذا نقول: إنَّ العلمانيّة المملوءة بتلك المشاكل لا يمكن أن

تكـون هـي الحـلّ، فجـلُّ مـا تسـتطيع أن تفعلـه علـى افتـراض تطبيقها فـي العالـم الإسـلامي هـو إخفاؤها لتلـك الخلافـات التي قد تنشـأ بين المذاهـب والأقليّـات الدينيّة، والتـي قد تظهر في أيِّ وقت، ولأيِّ سـببٍ كان.

أمّـا نحـن، فنسـعى عِبـر البحـث فـي الإسـلام نفسـه عـن حلـولٍ تكـون جذريّـةً لهـذه المشـاكل، حلـولٍ مـن شـأنها أن تقلـب المعادلـة، وتعيـد التـوازن المرجـوّ، وذلـك في اعتقـادي لا يتمُّ إلّا في منـاخٍ فكريٍّ متسـامحٍ يسـتلهم مـن القـرآن تعاليمـه، ويمتـح منـه رؤاه، فلكـم دينكم ولـي دينـي، ولكـم مذهبكم ولـي مذهبي، ولكـم قراءتكم ولـي قراءتي، إذ لا إكـراه فـي الديـن، ولا إجبـار، بـل دعـوةٌ بالتـي هـي أحسـن كمـا يقول جلَّ شـأنه: ﴿**أدعُ إلى سـبيل ربـك بالحكمةِ والموعظةِ الحسـنة وجادلهُـم بالَّتـي هـيَ أحسـنُ**﴾ لتنتهـي الآيـة بقوله جـلَّ وعـلا: ﴿**إنَّ ربـكَ هـوَ أعلـمُ بمـن ضَـلَّ عـن سـبيلهِ وهـوَ أعلـمُ بالمهتديـنَ**﴾ وهـي إشـارةٌ واضحـةٌ وجليّـةٌ إلى عـدم اتهام النـاس بالباطـل، ووصف عقائدهـم بالزيـغ والانحـراف، لأنَّـه أعلـم بمـن ضـلَّ عـن سـبيله، وهو أعلـم بالمهتديـن منكـم، ثـمَّ يخاطـب الله نبيّـه الكريم ﷺ بأنّك لسـت عليهـم بمصيطـر، فـإن أحسـنوا فلأنفسـهم، وإن أسـاؤوا فعليهـا، وليس عليـك إكراههـم على الإيمان، وهو مـا دفع الكثير من العلمـاء المتنورين للعمـل على هذا الأسـاس، وكان لهم مشـروعهم الوحـدويُّ المتميِّز، كما أنَّ إعـادة الصـدارة للأهداف الإسـلاميّة الكبرى من شـأنه أيضـاً أن يقلِّل مـن أهميّـة تلـك الفروقات.

تعالـوا نفكِّـر بطريقـةٍ أكثـر معقوليةً، ونحـن نضع الحلـول اللازمة

لتلك الأقليّات، ولا بدَّ قبل ذلك أن نميِّز هذه الأقليات عن بعضها، فهناك أقلياتٌ طائفيةٌ ترجع إلى دينٍ واحدٍ، مثل الشيعة، والأباضيّة، والنصيريّة والزيديّة، وهناك أقليّاتٌ دينيّةٌ (يهوديّةٌ، ومسيحيّةٌ، وإيزيديّةٌ، وصابئيّةٌ)، فكلُّ واحدةٍ من هذه الأقليّات لها حديثٌ مختلف، ولهذا سنأتي على ذكر الأقليّات الطائفية أوَّلاً، ونقول: إنَّ أمامها خياراتٌ ثلاثة، لا غير:

الأوَّل: بقاء الحال على ما هو عليه، أي مواصلة التعنُّت والتمسُّك بقوَّةٍ ببعض الآراء، أو المسائل، أو القضايا الخلافية التي تثير الحساسية لدى المذاهب الأخرى (وهي بالضرورة قضايا هامشيةٌ ليست من صلب الدين في شيءٍ)، هذا النوع من الآراء سيساعد بالضرورة على إنتاج الأحقاد والضغائن، ذات النهايات الدمويّة التي لا تخدم سوى الاستكبار العالمي، الذي سيكون من مصلحته بقاء حالة الاحتراب والاقتتال والفرقة بين الطوائف الإسلاميّة، ليسهل السيطرة عليها، وابتزازها مادِّياً على الجانبين الاقتصادي والعسكري، فمصانع الأسلحة في أمريكا، وغيرها من دول الاستكبار، بحاجةٍ إلى مستهلكين، والبقاء على حالة الغليان هذه ستخدمهم بالضرورة، هذه هي النتيجة الطبيعية التي سنصل إليها، فيما إذا أخذنا بالخيار الأوَّل، ورضينا بأن يبقى الحال على ما هو عليه، إنّه ليس سوى الموت الطوعي، أو سمِّه إن شئت بالانتحار البطيء.

الثاني: القبول بالخيار العلماني، وهو خيارٌ ذو شجونٍ، لأنّك إن قبلت به تصبح كذاك الذي يهرب من الذئب إلى الأسد، فالخياران كلاهما مرٌّ وقاتلٌ للنفس البشريّة المحترمة، أقول هذا لأنَّ المذاهب

التي نتحدَّث عنها هي مذاهب خرجت من عباءة السياسي، أو هي واقعٌ تفرضه القراءة البشرية للدين، والعلمانيّة كما هو معروفٌ تريد أن تقصي الدين عن الحياة بمجملها، وقبول المذاهب الدينيّة للحلِّ العلماني يعني التنازل عن الكثير من المبادئ والتعاليم الدينيّة على المدى القريب، أمّا على المدى البعيد، فإنَّ الحديث عن الدين سيكون حديث خرافة، لأنَّ العلمانيّة الشموليّة- وفقاً لتصنيف المسيري- سوف تقصي الدين عن الحياة بكليّتها، لا عن السياسة والاقتصاد فحسب، كما يحلو لدعاة العلمانيّة الجزئيّة أن يصوِّروه، وهذه أشدُّ وطأةً على المذاهب الدينيّة، لأنّها في هذه الحالة سوف تضطرُّ للتخلي عن الدين كلّه، بينما نراها في الحالة الأولى لا تريد أن تتخلّى عن بعض القضايا الخلافيّة البسيطة والجزئيّة، فكيف يكون ذلك، وهل يصحُّ أو يُعقل أن تطالب من يرفض أن يترك الأشياء الجزئيّة البسيطة ـ أي الخلافات المذهبيّة ـ أن يترك الكلّي وأعني به الدين.

الخيار الثالث والأخير: ونحن في هذا الخيار نحاول أن نأخذ بأكثر الاتّجاهات وسطيّةً واعتدالاً، لهذا فإنّنا نرفض رفضاً تامّاً الخيارين السابقين، نظراً لتطرّفهما المبالغ فيه، ولهذا نقترح أن يكون الحلّ الأنسب والأكثر معقوليّةً لمشكلة الطوائف والمذاهب الدينيّة، هو تفتيت بؤرة الخلاف بينها، والقضاء عليها عِبر عقد المؤتمرات والندوات بين علماء المذاهب الإسلاميّة من أجل تقريب وجهات النظر، وإزالة الكثير من الالتباسات والأخطاء التي جرَّت على الأمّة الكثير من الويلات والحروب، وهي في حقيقتها وهميّةٌ وزائفةٌ أريد لها أن تبقى وتستمرّ، فعلى سبيل المثال الخلاف الشيعي السنّي، إذا

ما بحثناه، وتتبعنا جذوره نجد أنّه بُنيَ على جملةٍ من المغالطات وسوء الفهم، فمثلاً يتهم السنة الشيعة بجملةٍ من الاتّهامات التي يتمُّ تكفيرهم عِبرها، قد تصل إلى إباحة الدم، فيقولون مثلاً (إنَّ الشيعة يؤمنون بتحريف القرآن، وإنّهم يعبدون أئمّتهم، ويسبون الصحابة، ولديهم قرآنٌ ثانٍ، إلى آخره...) إنَّ بعض هذه الاتّهامات إمّا غير صحيح بالمرَّة، أو تمَّ فهمها بشكلٍ خاطئ، أو أنَّ القائلين بها مجموعةٌ صغيرةٌ من الشيعة تمَّ ردُّهم من قبل علماء الشيعة أنفسهم، ونفس هذه الإشكالات قد ترد على الجانب السنّي، على كلٍّ حال، فإنَّ هذه الخلافات قد تصدى لها جملةٌ من أكابر علماء الشيعة والسنة على السواء، محاولين بذلك تضييق دائرة الخلاف إلى أكبر قدرٍ ممكنٍ، وتعويم الخطاب الوحدوي الذي يركِّز على القضايا المشتركة والمصير الواحد، وهذا الكلام لا يعني تذويباً للفروقات بين المذاهب الإسلامية بالمرَّة، فمن العسير جداً، وربما من المستحيل تجميع كلِّ الفرق والمذاهب الإسلامية تحت رؤيةٍ تأويليّةٍ واحدةٍ، ولكن يمكن القول بإمكانيّة التوصّل إلى خطابٍ وحدويٍّ تسامحيٍّ يعزز السلم بين هذه المذاهب، ويعطيها الحقَّ في ممارسة شعائرها الدينيّة والحقوقيّة وتطبيقها، من دون أن يكون لإحداها سلطةٌ على الآخر في مصادرة هذا الحقِّ أو منعه.

هذا هو الحلّ إذا ما أردنا نظاماً سياسيّاً ينسجم مع متطلبات الواقع من دون أن نضحي بأطروحة السماء، وهذه هي الإجابة عن الإشكال الذي أثاره (جورج طرابيشي) فيما يخصُّ الإسلام وأقليّاته المذهبيّة.

أمّا فيما يخصُّ الأقليّات الدينيّة الأخرى، فنكتفي بإيراد هذا النصِّ الذي يوضح حجم الحريّة التي يتمتعون بها ففي دولة المدينة المنوَّرة، ومنذ العام الأوَّل لقيامها، السنة الأولى للهجرة، نصَّ دستورها الذي اشتهر بالصحيفة أو الكتاب– على أنَّ (اليهود أمّةً مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم... ومن تبعنا من يهودٍ، فإنَّ له النصر والأسوة مع البرِّ المحض من أهل هذه الصحيفة، غير مظلومين، ولا مُتَنَاصَرٍ عليهم.. وإنَّ بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإنَّ بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم)، ونفس الحال مع النصارى عندما كتب لهم رسول الله ﷺ: «لنجران وحاشيتهم وسائر من ينتحل دين النصرانيّة في أقطار الأرض جوار الله وذمة محمد رسول الله، على أموالهم وأنفسهم وملتهم وبيعهم وكلِّ ما تحت أيديهم.. أن أحمي جانبهم، وأذبَّ عنهم، وعن كنائسهم، وبيعهم، وبيوت صلواتهم، ومواضع الرهبان، ومواطن السياح، وأن أحرس دينهم وملّتهم أين كانوا بما أحفظ به نفسي وخاصّتي وأهل الإسلام من ملَّتي.. لأنّي أعطيتهم عهد الله على أنَّ لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم.. حتّى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم»[1].

هذا النصُّ المضيء الذي يمثّل عقيدة الإسلام الناصعة، وطريقته البراقة في التعامل مع الديانات الأخرى قد تعرَّض للخرق مراتٍ عديدةً على يد بعض السلاطين والحكّام الذين شكّلت ممارساتهم

(1) محمد عمارة، الإسلام في عيون غربية، ص6-7 ينظر كذلك مجموع الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة.

مع الآخر (الذمّي) نمطاً من أنماط العلاقة التسلطيّة التي تحمل في داخلها ذلك النفس الاستبدادي الظالم الذي يتّخذ من التعصب مذهباً له، والذي يعكس الفهم غير الصحيح للتجربة النبويّة، وهو دلالةٌ صارخةٌ على حجم الانحراف الخطير الذي تعرضت له تلك التجربة.

إنَّ العلمانيين العرب وفقاً للترسيمة التي وضعوها للعلمانيّة، بوصفها الحلَّ الأمثل والنهائي لمشاكل العالم الثالث وللأقليّات التي تعيش فيه، لم يتشكّكوا أو يتساءلوا ولو مرّةً واحدةً عن النتائج التي يمكن أن يفرزها هذا النموذج حتّى أنَّ العرض الذي قدَّمه هؤلاء للعلمانيّة رغم وضوحه المفرط، بدا زائفاً ومخادعاً وغير حقيقيٍّ، لاكتفائه بلفت الانتباه إلى المناطق المضيئة منه، بينما كان بوسعهم – إذا ما أرادوا الحقيقة – أن يعرضوا كلَّ ما يمكن أن ينتج عن المشروع العلماني من إيجابيّاتٍ وسلبيّاتٍ على السواء، وهذا ما سعينا إلى توضيحه في هذه الدراسة، لأنَّ مسألة اختيار النموذج الأفضل الذي يجب أن تسير عليه البشريّة، كي تحقّق أهدافها وسعادتها، هي من المسائل المهمّة والخطيرة في حياة الإنسان، وليس من الإنصاف أو العدالة الإشادة بنموذجٍ معيَّنٍ فقط، لكونه يعلي من شأن المادِّي، فحياة الإنسان بما هو إنسانٌ لا تتمحور حول هذا المادِّي، بل إنّها تستلزم بوضوحٍ أكثر ذلك المعنوي الموغل بروحه وإنسانيّته في الإنسان، ولذلك تتكاثر وتزداد يوماً بعد آخر تلك الصيحات الغربيّة المنادية بعودة الديني الذي يعيد التوازن لهذا الكائن، ويسترجع سكينته المغتصبة، وألفته الغابرة، ولذا يرى الكثير من الكتاب والفلاسفة، ومن بينهم بيتر برجر "أنَّ العالم اليوم على قدر كبير من

التديّـن، كمـا كان دائمـاً، والاعتقـاد بـأنَّ تحديث المجتمع يقـود ضرورةً إلـى انحسـار الديـن فـي المجـال العـامِّ والحيـاة الفرديـة يبـدو اعتقـاداً خاطئـاً، فالواقـع يبيّـن أدواراً أهـمَّ للدين فـي المجتمع الحديـث، ولعلَّ البروتسـتانتيّة الإنجيليّـة والإسـلام همـا أكثر الشـواهد على هـذا الرفض للعلمنـة أو لعلّـه (ثـأر الربّ) كمـا يقول كيبـل"[1].

علي حاسب الزيدي

(1) اسـتدعاء الشـأن الدينـي فـي المجـال العام، محمـد الخـراط، ص 18، مجلة البـاب العدد السـابع.

المصادر

– استدعاء الشأن الديني في المجال العام. محمد الخراط ، مجلة الباب العدد السابع، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والابحاث، 2017.

– الإسلام في عيون غربية. محمد عمارة، دار الشروق، ص7-6 ينظر كذلك مجموع الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، 1956.

– العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة. عبد الوهاب المسيري، د. المجلد الأوَّل، دار الشروق، 2017، ص20.

– العلمانية تحت المجهر. عبد الوهاب المسيري وعزيز العظمة ، دار الفكر، 2020، ص121.

– العلمانية في المشرق العربي، مجموعة مؤلفين، بترا للطباعة والنشر والتوزيع، 2007، ص16.

– العلمانية مذهباً، دراسة نقدية في الأسس والمرتكزات، مجموعة من الباحثين، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، 2014، ص-72 73.

– القرآن الكريم، سورة الحجرات، الآية: 13.

– مقال نقد العلمانية. أبو زيد أوكاي بالا ، مقال على شبكة النت.